محمد شكري

تم تحميل هذا الكتاب من
سور الأزبكية
www.ithar.com

الخبز الحافي

سيرة ذاتيّة روائيّة

١٩٣٥ ـ ١٩٥٦

دار الساقي

للمؤلف

- مجنون الورد (مجموعة قصصية)
- السوق الداخل (رواية)
- المدينة المضادة (مجموعة قصصية)
- استرناكوس العظيم أو موت العبقري (مسرحية)
- الشطار (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)

كلمة

صباح الخير أيها اللّيليون،

صباح الخير أيها النَّهاريون،

صباح الخير يا طنجة المُنْغَرِسَة في زمن زئبقي.

ها أنذا أعود لأَجُوس، كالسائر نائماً، عبر الأَزقَّة والذكريات، عَبْر مَا خَطّطْتُه عن «حياتي» الماضية ـ الحاضرة... كلمات واسْتِيهامَات ونُدُوب لا يُلْئِمُها القَوْل.

أين عمري من هذا النَّسْج الكلامي؟

لكن عبير الأماسي والليالي المكتظّة بالتَّوجُّس واندفاع المغامرة يَتَسلَّل إلى داخلتي لِيُعيد رماد الجمرات غلالةً شفَّافة آسِرة...

منذ سنتيْن مات «عَبْدُون فُرُوسُو». البطل الحقيقي الذي أيقظ مُخَيِّلتي وأَعانَني على تحمّل القهر والحرمان وعنف الصراع الجسدي... مات قبل أن أنشر قصة «الخيمة» التي استَوْحَيْتُها من حضوره وتدفّقه وشغفه بالحياة. أَنتظر أن يُفْرَجَ عن الأدب الذي لا يَجْتَرُّ ولا يُراوغ: مثل هذه الصفحات عن سيرتي الذاتية، كتبتها منذ عشر سنوات ونشرت ترجمتها بالانجليزية والفرنسية والإسبانية قبل أن تعرف طريقها إلى القراء في شكلها الأصلي العربي.

www.ithar.com

لقد علمتني الحياة أن أنتظر. أن أَعِيَ لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما اسْتَحْصَدْتُه: قُلْ كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف، حتماً، طريقها. لا يَهُمُّ ما ستؤول إليه. الأهم هو أن تُشعل عاطفة أو حزناً أو نَزْوَة غافية.. أن تُشعل لهيباً في المناطق اليباب المَوَات.

فيا أيها الليليون والنهاريون، أيها المتشائمون والمتفائلون، أيها المتمردون، أيها المراهقون، أيها «العقلاء»...: لا تنسوا أن «لعبة الزمن» أقوَى منا، لعبة مُميتة هي، لا يمكن أن نواجهها إلاّ بأن نعيش الموتَ السابق لِموتنا، لإماتَتِنَا: أن نرقص على حبال المخاطرة نُشداناً للحياة.

أقول: يُخرج الحيّ من الميّت.

يخرج الحيّ من النَّتِن ومن المتحلِّل. يُخرجه من المُتْخَم والمنهار...

يُخرجه من بطون الجائعين ومن صُلْبِ المتعيِّشين على الخبز الحافي».

م. ش.

طنجة ١٧/٥/١٩٨٢

١

أبكي موت خالي والأطفال من حولي. يبكي بعضهم معي. لم أعد أبكي فقط عندما يضربني أحد أو حين أفقد شيئاً. أرى الناس أيضاً يبكون. المجاعة في الريف. القحط والحرب.

ذات مساء لم أستطع أن أكف عن البكاء. الجوع يؤلمني. أمص وأمص أصابعي. أتقيأ ولا يخرج من فمي غير خيوط من اللعاب. أمي تقول لي بين لحظة وأخرى:

ـ أسكت، سنهاجر إلى طنجة. هناك خبز كثير. لن تبكي على الخبز عندما نبلغ طنجة. الناس هناك يأكلون حتّى يشبعوا.

أخي عبد القادر لا يبكي. أمي تقول:

ـ خم أو ماش (أنظر أخاك) نتا ويتروشا (أنه لا يبكي). إشِكْ تْتروذْ (وأنت تبكي).

أنظر إلى سحنته الشاحبة وعينيه الغائرتين فأكف عن البكاء. بعد لحظات أنسى الصبر الذي أستمده منه.

دخل أبي. وجدني أبكي على الخبز. أخذ يركلني ويلكمني:

ـ أسكت، أسكت، أسكت، ستأكل قلب أمك يا ابن الزنا.

www.ithar.com

رفعني في الهواء، خبطني على الأرض. ركلني حتّى تعبت رجلاه وتبلل سروالي.

في طريق هجرتنا، مشياً على الأقدام، رأينا جثث المواشي تُحَوِّمُ حولها الطيور السوداء والكلاب، روائح كريهة، أحشاء ممزقة، دود ودم وصديد.

في الليل يُسْمَعُ عواء الثعالب قرب الخيمة التي ننصبها حيثما يوقفنا التعب والجوع. الناس، أحياناً، يدفنون موتاهم حيث يسقطون.

أخي يسعل ويسعل. سألت أمي خائفاً:

ـ أهو أيضاً سيموت؟

ـ كلا. من قال لك أنه سيموت؟

ـ خالي مات.

ـ أخوك لن يموت. هو فقط مريض.

في طنجة لم أر الخبز الكثير الذي وعدتني به أمي. الجوع أيضاً في هذه الجنة، لكنه لم يكن جوعاً قاتلاً.

حين يشتد عليّ الجوع أخرج إلى حيّ «عين قطيوط». أفتش في المزابل عن بقايا ما يُؤْكَلُ. وجدت طفلاً يقتات من المزابل مثلي. في رأسه وأطرافه بثور. حافي القدمين وثيابه مثقوبة. قال لي:

ـ مزابل المدينة أحسن من مزابل حيِّنا. زبل النصارى أحسن من زبل المسلمين[1].

(١) في تلك الأيام كان عامة الناس يسمون كل اوروبي نصرانياً، ويعتبرون كل عربي يتكلم العربية مسلماً. كلمة المسلمين هنا تعني المغاربة.

بعد هذا الاكتشاف صرت، أحياناً، أذهب أبعد من حيِّنا: وحيداً أو صحبة أطفال المزابل.

عثرت على دجاجة ميتة. ضممتها إلى صدري وركضت إلى بيتنا. أبواي في المدينة، أخي في ركن مدد، نصفه الأعلى مرفوع فوق وسادة. يتنفس بصعوبة. عيناه الكبيرتان الذابلتان ترقبان مدخل الباب. يرى الدجاجة. تتيقظ عيناه. يبتسم. يتورد وجهه النحيل. يتحرك كأنه يفيق من اغماء. يسعل فرحاً، أعثر على السكين. يسعل ويلهث. أولِّي وجهي قبلة المشرق: حيث أرى أمي تولِّي وجهها وتصلي. قلت جهراً: «بسم الله. الله أكبر». هكذا رأيت الكبار يفعلون. ذبحتها حتّى أنفصل رأسها. أنتظرت أن يسيل دمها. أدلكها لعل الدم يسيل منها. يسيل قليل قاتم من ثقب عنقها. في «الريف» رأيتهم يذبحون كبشاً. لا أدري في أية مناسبة. وضعوا طاساً تحت عنق الكبش الفائر بالدم. امتلأ الطاس وأعطوه لأمي المريضة. رأيتهم يمسكون بها في الفراش وهي تقاومهم عازفة عن شراب الدم. جعلوها تشربه بالقوة. تلوث وجهها وثيابها. تمرغت في الفراش ثم همدت وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة. لماذا لا يفور الدم الآن من عنق هذه الدجاجة كما رأيته يفور من عنق الكبش؟ شرعت أريشها. سمعت صوتها:

ـ ماذا تفعل؟ من أين سرقتها؟

ـ عثرت عليها مريضة. ذبحتها قبل أن تموت. إسألي أخي.

ـ مجنون ! (خطفتها مني غاضبة). الإنسان لا يأكل الجيفة.

أخي وأنا تبادلنا نظرات حزينة. كلانا أغمض عينيه في انتظار ما سنأكله.

www.ithar.com

أبي يعود كل مساء خائباً. نسكن في حجرة واحدة. أحياناً أنام في نفس المكان الذي أتقرفص فيه. أن أبي وحش. عندما يدخل لا حركة، لا كلمة إلاّ بإذنه كما هو كل شيء لا يحدث إلاّ بإذن الله كما سمعت الناس يقولون. يضرب أمي بدون سبب أعرفه. سمعته مراراً يقول لها:

ـ سأهجرك يا أبنة القحبة. دبري أمرك وحدك مع هذين الجروين.

ينشق السعوط. يتكلم وحده. يبصق على أناس وهميين. يشتمنا. يقول لأمي: «أنت قحبة بنت قحبة». يسب العالم دائماً ويجدف على الله أحياناً ثم يستغفره.

أخي يبكي، يتلوى ألماً، يبكي الخبز. يصغرني. أبكي معه. أراه يمشي إليه. الوحش يمشي إليه. الجنون في عينيه. يداه أخطبوط. لا أحد يقدر أن يمنعه. أستغيث في خيالي. وحش! مجنون! أمنعوه! يلوي اللعين عنقه بعنف. أخي يتلوى. الدم يتدفق من فمه. أهرب خارج بيتنا تاركاً إيَّاه يسكت أمي باللكم والرفس. اختفيت منتظراً نهاية المعركة. لا أحد يمرّ. أصوات ذلك الليل بعيدة وقريبة مني. السماء. مصابيح الله شاهدة على جريمة أبي. الناس نائمون. مصباح الله يظهر ويختفي. شبح أمي. صوتها خفيض. تبحث عني. تنتحب. الظلام يخفيني. لماذا ليست قوية مثله؟ الرجال يضربون النساء وهن يبكين ويصرخن.

ـ محمد، محمد اينو (محمدي). أراحد (تعال). لا تخف. أراحد.

وجدت لذتي في أن أراها ولا تراني. قلت لها:

ـ أقابي ذانيتا (ها أنا هنا).

ـ أراحد.

ـ لا. أذاي ينغ (سيقتلني) أَمِشْ (مثلما) يَنْغَا (قتل) أو ما إينو (أخي).

ـ لا تخف. تعال معي. لن يقتلك. تعال. اسكت حتَّى لا يسمعنا الجيران.

ينتحب وينشق السعوط. عجيب: يقتل أخي ثم يبكيه.

سهرنا ثلاثتنا ننتحب في صمت. أخي مسجى مغطى بقماش أبيض. نمت وتركتهما ينتحبان.

في الصباح انتحبنا أيضاً بصمت. تلك أول مرة أذهب في جنازة. أخي منعوش في حصيرة بين ذراعي الشيخ، أبي وراءه وأنا خلفهما حافياً أعرج. يضعانه في حفرة مبللة. أرتجف وأبكي. لطخة دم متخثرة حول فمه. يختفي وراء التراب. صار ربوة صغيرة.

أنتبه الشيخ، لدى خروجنا من المقبرة، لبناني الدامية. سألني بالريفية:

ـ مانا الذم ما؟ (ما هذا الدم؟)

ـ عفسغ خ الزاج (عفست على الزجاج).

قال أبي:

ـ لا يعرف حتَّى كيف يمشي. ذابو هاري(أبله).

سألني الشيخ:

ـ أكنت تحب أخاك؟

www.ithar.com

ـ كثيراً. (ما زلت منتحباً). امي كانت تحبه كثيراً. تحبه أكثر مما تحبني.

ـ من لا يحب ولده؟

تذكرت كيف لوى أبي عنق أخي. كدت أصرخ: أبي لم يكن يحبه. هو الذي قتله. نعم. قتله. قتله قتله. رأيته يقتله. هو هو قتله. قتله. رأيته يقتله. لوى عنقه. تدفق الدم من فمه. رأيته رأيته يقتله. أبي قتله قاتله الله.

لكي أخفف من كراهيتي الشديدة لأبي أخذت أبكي من جديد. كنت خائفاً من أن يقتلني كما قتل أخي. نهرني بصوت منخفض وَعيدٍ.

ـ ألن تكف عن البكاء؟

قال الشيخ:

ـ نعم، كفَى من البكاء. أخوك عند الله. هو الآن مع الملائكة.

أكره أيضاً هذا الذي دفن أخي.

يشتري كيساً من الخبز الأبيض والتبغ الرخيص. يذهب إلى مكان بعيد عن طنجة ليقايض الجنود الاسبانيين في ثكناتهم. يعود مساء حاملاً ملابس الجنود. يبيعها في السوق الكبير للعمال والفقراء المغاربة.

ذات مساء لم يعد. نمت تاركاً أمي مهمومة تنتحب. أنتظرنا ثلاثة أيام. أحياناً أنتحب معها. كنت أؤازِرُهَا. تحبه؟ لا تحبه؟ أدركت السبب عندما قالت:

ـ ها نحن وحدنا. من سيعيننا؟ لا نعرف أحداً في هذه المدينة.

جدتك رقية، خالتك فاطمة وخالك ادريس هاجروا مِن الريف هم أيضاً إلى وهران. لا بد أن يكون العساكر الاسبانيون هم الذين قبضوا على أبيك. أنه هارب من الجندية الاسبانية.

علمنا أنهم سجنوه. وشى به جندي مغربي كان يعرفه في اسبانيا. لم يرد أبي أن يبيع له بطانية عسكرية بالثمن الذي كان يريده الجندي الواشي. هذا ما قيل لأمي.

تذهب إلى المدينة باحثة عن عمل. تعود خائبة مثلما كان أبي يعود في الأيام الأولَى من وصولنا إلى طنجة. تقضم أظافرها. تنتحب. يكتب لها المشعوذون تمائم لعل أبي يخرج من السجن وتجد هي عملاً. تصلي كثيراً وتدعو كثيراً. تشعل الشموع في أضرحة أولياء الله. تستطلع حظ مستقبلنا عند «الشوافات». لا سراح من السجن، لا عمل ولا حظ إلاّ بأمر من الله ورسوله محمد. هكذا تقول.

لماذا الله لا يعطينا حظنا مثلما يعطيه لبعض الناس؟ هكذا سألت أمي.

ـ الله هو الذي يعرف. نحن لا نعرف. لا ينبغي لنا أن نسأله عما يعرفه هو خيراً منا.

باعت أشياء من منزلنا. أرسلتني يوماً مع أطفال جيراننا لآتيها بالبقول. خفت أن يعتدوا عليّ. لم يكن لي بينهم صديق حميم أستنجد به إذا أنا تعاركت مع أكثر من واحد. أنهم يتحامون ضد الوافدين الجدد إلى المدينة. تخلفت عنهم في الطريق. تظاهرت أني سأبول. نزلت إلى المدينة. أحب حركتها. في السوق البراني[1] أكلت أوراق

(١) السوق الكبير يقابله السوق الداخلي أو الصغير، بمدينة طنجة

www.ithar.com

الكرنب، قشور البرتقال وبقايا فواكه عفنة. طفل يكبرني يطارده شرطي. بين الطفل والشرطي مسافة قصيرة. تخيلتني ذلك الطفل. ألهث معه. الناس يقولون: سيقبضه ! سيقبضه! صاح الناس: ها هو قبضه!

ارتعشت. خفت. تصورتني قبضني. دعوت الله ألا يقبضه، لكنه قبضه. شعرت بكراهية للذين تمنوا أن يقبضه. من بعيد رأيت أمرأة أجنبية تلهث وراء الذين توقفوا ليتفرجوا على الحادث. سمعتها تتكلم وحدها بلغة لا أفهم منها كلمة. قال رجل مغربي:

ـ لم يترك لها غير اذن حقيبتها في يدها.

هَوَى شرطي على مؤخرتي بهراوته. قفزت في الهواء صارخاً بالريفية: أيمانوا! أيمانوا![1] لعنت الشرطي في خيالي. شرطيان آخران يضربان الصغار ويدفعان الكبار. ضربا أيضاً بعض المغاربة البائسين الكبار.

سمعت أن رجال الأمن يضربون الناس ويقودونهم إلى السجن إذا هم قتلوا أو سرقوا أو سال دمهم في العراك.

دخلت مقبرة «بوعَرَاقِية». التقطت أغصاناً من الريحان من فوق القبور الجميلة. وضعتها على قبر أخي. رأيت هناك قبوراً كثيرة بلا ريحان، بلا بلاطات مثل قبر أخي: ربوة من التراب وحجران (مختلفان في الشكل) يشير واحد منهما إلى الرأس والآخر إلى القدمين. تألمت للقبور المنسية: تكسوها نباتات وحشية، بعضها منهار. حتّى هنا، في المقابر، عندهم الأغنياء والفقراء. لماذا يموت الإنسان؟ ـ لأن الله يريد

(١) أماه! أماه!

ذلك ـ هكذا أجابتني أمي. أين يذهب من يموت؟ ـ إلى الجنة أو النار.

ـ ونحن؟

ـ الى الجنة ان شاء الله.

ـ وماذا هناك؟

ـ إنك تسأل كثيراً. حتّى تكبر وتعرف كل شيء.

وجدت هناك البقول التي وصفتها لي أمي. رأيت ثلاثة رجال يشربون بالتناوب من زجاجة لون سائلها قاتم. ناداني أحدهم:

ـ ايه! تعال إلي هنا أيها الطفل! تعال لكي أعطي لك شيئاً. خِفْتُ وَهَرَبْتُ. أَعْطِهِ لأمك يا بن الزنا.

أثناء وجبة الغداء قالت لي:

ـ هذي البقول لذيذة.

آكل بلذة مثلها. أبلع أكثر مما أمضغ.

ـ من أين جمعتها؟

ـ من مقبرة بوعراقية.

ـ من المقبرة!

ـ نعم، من المقبرة. ماذا في ذلك؟

انفغر فمها. أضفت:

ـ زرت قبر أخي. وضعت فوق قبره بعضاً من الريحان. ربوة تراب قبره لم تعد عالية. إذا ظل قبره كما هو من التراب فسيتساوى مع الأرض ولن نستطيع أن نعثر عليه بين القبور التي تجاوره.

تركت الأكل. انقبضت ملامحها. دمعت عيناها. أضفت:

www.ithaf.com

ـ هناك كثير من هذه البقول حول القبور المنسية.

ـ ما ينبت في المقابر لا يأكله الناس.

ـ لماذا؟

تأملتني بحيرة. أنا آكل بشهية. تخيلتها ستقيء. اخذت صحني. قالت بالريفية.

ـ آشْفَاشْ، أَتِشْذْ إِخْفِنِشْ (كفاك، لتأكل نفسك).

ـ لم أشبع.

ـ من أين جمعت الريحان؟

ـ من فوق بعض القبور. فوقها ريحان كثير.

قالت بصرامة:

ـ غداً ستعود إلى المقبرة وترد ريحان الناس إلى مكانه. إنها قبور الناس. حذار أن يراك أحد ترد الريحان إلى القبور. نحن أيضاً سنشتري لأخيك الريحان. سنبني له قبراً جميلاً.

بدأت تنتحب. أنا أيضاً غلبني الحزن فسالت دموعي. ضمتني إليها ونعست.

تصحبني معها إلى السوق الكبير. نشتري ركاما من خبز يابس يبيعه المتسولون تحت شجرة ضخمة قرب ضريح سيدي المخفي. تطبخه في الماء، مع قليل من الزيت والتوابل. أحياناً في الماء وحده.

ذات صباح باكر قالت:

ـ أنا سأذهب إلى السوق. سأشتري خضراً وفواكه وأبيعها. أنت ستبقَى هنا. احرس بيتنا. لا تلعب مع الأطفال وتترك بيتنا للسراق.

بيني وبين أطفال الحي فوارق تجعلني أحس أني أقل منهم رغم أن

بعضهم بائس مثلي. رأيت واحداً منهم يلتقط عظام الدجاج من المزبلة ويمصها. قال الطفل: «أصحاب هذه الدار يرمون دائماً زبلاً جيداً». يقولون عني:

ـ هو ريفي. جا من بلاد الجوع والقتالة (القتلة).

ـ ماكيعرفش يتكلم العربية.

ـ الريفيون كلهم مرضَى هذا العام بمرض الجوع.

ـ حيواناتهم حتَّى هي مريضة.

ـ نحن لا نأكلها. هم يأكلونها. تزيدهم مرضاً على مرض.

ـ إذا ماتت لهم بقرة أو غنمة أو عنزة كياكلوها. كياكلو حتَّى الجيفة.

الطفل «الجبلي» الوافد مثل الريفي على المدينة، يشترك معه في هذا الإحتقار، لكنه لا يعيَّرُ مثل الريفي. غالباً ما يعتبرونه مغفلاً: «الريفي خداع والجبلي نيّة[1]».

يجاور سكنانا بستان صغير. شجرة إجاص كبيرة تغريني كل يوم. ذات صباح باكر ضبطني صاحب البستان أسقط له إجاصاته الكبيرة، الناضجة، بقصبة طويلة. هو يجري وأنا أحاول باكياً أن أتخلّص منه. بلتُ في سروالي المغربي الفضفاض رغم أنه لم يضربني. قال لزوجته البشوش:

ـ ها هو البرغوث الذي يفسد لنا شجرة الإجاص. يفسد أكثر مما يأكل مثل الفأر.

(١) تستعمل هذه الكلمة عند عامة الناس بمعنى عدم الفطنة.

www.ithar.com

سألتني بلطف خفف عني خوفي:

ـ أين هي أمك يا ولدي؟

ـ ذهبت لتبيع الخضر والفواكه في السوق.

ـ كفاك من البكاء. وأبوك؟

ـ في الحبس.

ـ في الحبس؟

ـ نعم في الحبس.

ـ مسكين! لماذا هو في الحبس؟

أربكني السؤال. أعادت السؤال ملاطفة وجهي بحنان:

ـ قل لي، لماذا هو أبوك في الحبس؟

فكرت أن في الجواب الصريح مساساً بكرامة أبوي.

ـ لا أعرف. أمي هي التي تعرف.

تحاور الرجل مع زوجته وابنته التي جاءت عارية القدمين في شأن حبسي حتّى تعود أمي. رأس الفتاة ملفوف في منديل أبيض ويداها الرفيعتان البيضاوان مبللتان. أدركت أن المرأة وابنتها تشفقان عليّ، لكن الزوج، بين جد ومزاح، كما يبدو من كلامه وملامحه، يصرّ على عقابي. أدخلني حجرة قاتمة كُدِّسَتْ فيها أشياء أغلبها مكسور. قال لي مغلقاً عليَّ الباب:

ـ إيَّاك أن تبكي. سأجلدك بقضيب إذا أنت بكيت.

الحبس في حجرة. هذه أول مرة. إذن يمكن أن يتحكم في ناس من غير أن يكونوا من أسرتي. الإجاصات هي لهؤلاء الذين حبسوني الآن. لكن لماذا نهجر نحن الريف ويبقى آخرون في بلادهم؟ يدخل أبي السجن، تبيع أمي الخضر، تاركة إياي وحدي جائعاً ويبقى هذا الرجل مع زوجته في منزلهما؟ لماذا لا نملك ما يملكه غيرنا؟

أرى من ثقب مفتاح الباب الشابة تنظف الأرض بالماء والصابون بحيوية، حافية القدمين، حاسرة ثوبها الشفاف عن فخذيها البيضاوين ونهديها العاريين الصغيرين. يهتزان، يطلان ويختفيان من خلال فتحة قميصها مثل عنقودين من العنب يتدليان. شعرها ملفوف في المنديل الأبيض الملطخ بالحنة. ملفوف مثل رأس الملفوف[1].

طرقت الباب بخوف. أراقب حركاتها. قلبي يخفق مع حركاتها خوفاً وفرحاً. التفتت نحو الباب منحنية تجفف الأرض.

ـ تعالي وافتحي هذا الباب اللعين.

ترددت للحظة. ألححتُ عليها في خيالي:

ـ أرجوك، لا تتردي، تعالي.

تركت الجفاف واستقامت. نفضت يديها من الماء، شدت على وسطها بيديها. ارتسم ألم خفيف على وجهها المورد. ها هي آتية نحو الباب. خفق قلبي. ارتعشت. فتحت وقالت برقة باسمة:

ـ ها أنا. ماذا تريد؟

تلعثمت. دمعت عيناي.

---

(١) الكرنب

www.ithar.com

ـ ستضربني أمي إذا هي عادت من السوق ولم تجدني في البيت أحرسه من اللصوص. لقد تركتني أحرسه.

خفضت رأسي خجلاً واستعطافاً. نظرت إلى فخذيها الممتلئين. أطلقت ثوبها المشدود إلى حزامها القماشي. تأملتني بإشفاق. أتطلع إليها متوسلاً. شدت بيدها على فتحة صدرها المفتوحة. ينتصب نهداها الطويلان. يَشِفُّ بياض الثوب عن حلمتيها مثل حَبَّتَيْ عِنَبٍ.

ـ هل ستطيح الإجاص بالقصبة مرة أخرى من شجرة بستاننا[1]؟

ـ أبداً. اقتليني أنت بنفسك إذا وجدتني مرة أخرى أطيح الاجاص.

ابتسمت. لم أبتسم. خرجت مسرعاً. أدركني صوتها الرقيق:

ـ آجي. جوعان؟

اختلجت ملامح وجهي. قلت باضطراب:

ـ لاج شبعان.

ألحت عليّ أن أنتظرها. أبواها غائبان عن الدار. تطلعت إلى الشجرة. امتزج حبي وكراهيتي لها. لن آكل منها بعد اليوم.

مدت لي رغيفاً يقطر بالعسل الأسود.

ـ إذا جعت فعد إلينا. (أضافت): أليس عندك حذاء؟

ـ أمي ستشتريه لي.

(١) الأصح هو هل ستطيح بالاجاص. تعمدت حذف الباء لتقريب التركيب من الدارجة كما سيرد في تراكيب أخرى.

تفحصتني باسمة وأنا ألتفت إليها مبتعداً عنها. قبل أن أختفي لوحت لي بيدها باسمة. أجبتها مبتسماً واختفيت.

أهو الرجل أقسى من المرأة؟ أتمنى لو أنها أختي. هذا المنزل والبستان لو أنهما لنا. صاحب البستان أقل قسوة من أبي. لو أنه أبي.

يتبعنا بعناد. يقترب منها ويهمس في أذنها بكلمات لا أسمعها. تبتعد عنه. نعبر إلى الرصيف الآخر ماسكة يدي. أحياناً تسحبني بشدة. يلاحقنا بعناد. يضحك. تعبس. نتوقف. يسبقنا ويبطىء سيره. نعبر من جديد إلى الرصيف الآخر. يتبعنا بعناد. أنا غاضب. سألتها:

ـ ماذا يخصه هذا الرجل؟

ـ ليس شغلك.

أنظر إليه. يبتسم يتبعنا بعناد. ماذا يريد من أمي؟ أهو يريد أن يخطفها؟ لا شك أنه خطاف. شددت على يدها بقوة.

ـ لا تمسكني من يدي هكذا. لن أهرب منك.

قلت له بغضب:

ـ امش، امش. ماذا تريد؟

اللعنة عليه. يبتسم لي ولأمي. قالت لي:

ـ قلت لك اسكت أنت. ألا تسمع؟

غضبت عليها في خيالي. أنا أدافع عنها وهي تسكتني.

التقت أمي امرأة. أخذتا تتكلمان عن أبي. الرجل العنيد يبتعد عنا. لامست المرأة شعري. انزلقت يدها الخشنة ملاطفة وجهي. تركت يد

www.ithar.com

أمي وتمسكت بجانبها. قالت المرأة:

ـ لماذا هو محمدك حزين هكذا؟

نظرت إليّ أمي لافة معصمها حول عنقي. خفَّ غضبي. قالت للمرأة:

ـ هكذا هو دائماً.

توادعتا. قالت لي أمي:

ـ بس يد للّا لويزة (بست يد السيدة لويزا طائعاً).

بطن أمي ينتفخ. أحياناً لا تذهب إلى السوق. تقيء عدة مرات في اليوم. شاحبة. ساقاها تؤلمانها. تنتحب. ينتفخ وينتفخ بطنها. أخشى أن ينفجر. لم يعد يؤثر عليّ نحيبها. أقسو وأقسو وأحزن. نسيت اللعب. حملوني في ليلة ناعساً إلى بيت آخر. نمت مع ثلاثة أطفال. قالت لي الجارة الأرملة في الصباح.

ـ ها أنت لك الآن أخت. كن لطيفاً معها.

تزوره في السجن مرة في الأسبوع. تعود أحياناً منتحبة. بدأت أدرك أن النساء يبكين أكثر من الرجال. يبكين ويكففن عن البكاء مثل الأطفال. أحياناً يحزن حين يفكر الواحد أنهن سيفرحن ويفرحن حين يفكر الواحد أنهن سيحزن. متى يحزن ومتى يفرحن؟ رأيت أمي مرة تبكي باسمة. أهي حمقاء؟

أبقى في الدار أحرس أختي أرحيمو. أعرف كيف أضاحكها، لكني لا أعرف كيف أسكتها عن البكاء. أضيق فأخرج. أتركها تبكي وتعارك نفسها بأطرافها المعوجة مثل سلحفاة مقلوبة على ظهرها. حين

أعود أجدها نائمة أو باسمة. غالباً نائمة. الذباب يقفز على وجهها الذي نمشته عضات الناموس. في الليل الناموس وفي النهار الذباب.

أختي تنمو. أمي يقل بكاؤها وتذمرها. أنا أزداد شراسة، مع أمي أو مع أطفال الحي. إذا انهزمت معها أو معهم أكسر الأشياء أو أسقط على الأرض صارخاً وأعارك نفسي باكياً شاتما إياها أو الأطفال.

سألتها:

ـ هل المرأة أيضاً يمكن أن تدخل السجن؟

ـ لماذا؟

ـ إنني أسأل.

ـ نعم. هي أيضاً إذا فعلت شيئاً قبيحا مع الناس.

بدأت تأخذنا معها إلى السوق. أختي ترضع من صدرها وأنا، في معظم الأحيان، أبحث عن غذائي بعيداً عنهما في السوق أو في أزقة المدينة القديمة. أستعطي وأسرق. أقول لها حين تلومني عن غيابي:

ـ سوف أهجر هذا البيت القذر. لن أعود إليه أبداً.

ـ أنت هكذا إذن يا هذا الخنفس. أنت هكذا إذن من الآن. ماذا أقول عنك عندما تكبر..؟

ذات صباح فاجأنا في السوق الكبير مصحوباً بجارة لتدله عن مكان أمي. انتحبت أمي في السوق وفي الدار. لماذا تنتحب من أجله؟ إنه قاس وشرير. في تلك الليلة غلبني النوم قبل المعتاد وتركتهما يتشاكيان.

في الصباح لم تذهب إلى السوق. ذهبت إلى الحمام العمومي.

www.ithar.com

تـزينت وسـوكت فمهـا وكحلت عينيهـا. رأيتهـا مسرورة في ذلـك الصباح. هكـذا إذن. حـين خـرج أبي رأيتهـا تنتحب رغم زينتهـا. فكرت: لم أر امرأة بكاءة مثلها حتى الآن. سألتها عما أبكاها. أفهمتني أن أبي خـرج ليفتش عن الجندي الـواشي ليتقاتـلا. فـرحت. أتمنى أن يعثر أبي على ذلك الجندي الواشي ويقتله حتى يطول غيابه مرة أخرى. أن يقتل أحدهما الآخر. هذا ما أتمناه. أحب غيابه حيا أو ميتا.

عاد حزيناً في المساء. فاحت منه رائحة مخمورة. سمعت أمي تقول له:

ـ شربت، أليس كذلك؟

دمدم بكلمات واسترخَى حزيناً ومتعبـا. هو حـزين لأنه لم يعـثر على غريمه وأنا حزين لأنه عاد. سمعتهما يتحدثان عن رحيلنا إلى تطوان. لم تكن لنا غير حجرة واحدة. تركتهما يتحدثان بحزن ونمت.

في الليل أيقظتني مشانتي الممتلئة. قبـلات تصفق. لهاث يتـلاحق. همسـات حب. إنهما يحبان بعضهـما. اللعنة عـلى حبهـما. لحم يصفق. تفو؟ إنها تكذب. لن أصدقها بعد اليوم.

ـ فمك.

ـ ها أنا. ليس بعنف. ليس هكذا. انتظر.

ماذا يفعلان؟

ـ أقول لك هكذا.

سأهبط لأنام على الأرض.

يصفعها. ماذا يفعلان؟

ـ بنت الزناء.

ـ كلا. كلا. تؤلمني (آذان اينو). مصاريني. هكذا. هكذا أحسن.

لا. لا. ليس هكذا. نعم هكذا.

لا بـد أن يكونـا مصـابـين بـالحمَّى. لهـاث. قبـلات. تـأوهـات. لهاث. قبلات. لهاث. قبلات. تأوهات. يعضان بعضهما. يأكلان بعضهما يلعقان دمهما...

ـ م م م.....!

يطعنها. تـأوه طويـل خفيض. شهيق. قتلها. أحس مثانتي تفرغ. السائل الساخن يندفق بلذة بين فخذي.

قبـل رحيلنا بيـوم رأيت الفتـات التي حـررتني من الحبس وأعـطتني الخبـز المعسل. أخـبرتها بـرحيلنا إلى تـطوان. أخذتني معهـا إلى منزلهـا ماسكة إياي من يدي. أكلت الخبز الأسود بـالعسل الـدافىء والزبـد. أعطتني تفاحة كبيرة ذات حمرة طفيفة. ملأت جيوبي باللوز. غسلت لي وجهي وأطـرافي. كنت أخـاهـا الأصغـر؟! إنهـا؟ مشـطت شعـري المنفوش. قصَّت لي منه ويدها الملساء والدافئة تلامس وجهي ورأسي. عـطرتني. شمتني. أرتني وجهي في مـرآة صغـيرة ذات إطـار فضي. تأملت وجهها أكثر مما تأملت وجهي. أمسكته بين يديها كما تعـودت أنا أن أمسك عصفوراً حتى لا أوله. تارة تضغط بلطف عـلى وجهي وتارة تهدهده. ودعتني بالقبلات على خديّ. باست فمي. فكرت فيهـا مثل أخت لم تلدها أمي.

في يوم رحيلنا تذكرت قبر أخي. سيظل قبره بلا سقي، بلا ريحان، بلا بناء. قـبر أخي سيضيع كـما تضيع الأشيـاء الصغيرة وسط الأشيـاء الكبيرة.

www.ithar.com

٢

عـثرنا، في حيّ عـين خباز، عـلى مسكن في جوار بستـان. حجـرة واحدة ومرحاض خارج الحجرة.

عادت أمي تبيع الخضر والفواكه في حيّ «الـطرانكات». أبي يستلذ البـطالة في سـاحـة «الفـدان» مـع المغـاربـة معـطوبي الحـرب الأهليـة الاسبانية. كان بعضهم يفخر بها لأنها أتاحت لـه أن يغامـر وأن تكون له ذكريات عن المعارك التي خاضها منتصراً أو مهزوماً. وكان الكاوديو يُسَمَّى بينهم الحاج فرانكو.

أنـا أتسخر لجـيراننا الاسبـانيين. أختي ارحيمـو تتكور عـلى الأرض وتحاول أن تستوي ماشية. أضاحكها وألاعبها، لكن حين توسخ ثيابها بـالرائحـة الكريهـة أتركهـا وأهرب بعيـداً حتّى تعود أمي من السـوق. أحياناً يغيب أبي يوماً أو يومين. حـين يعود يتشـاجران. غـالباً مـا كان يـدميها. لكنني في الليـل أسمعهما في الفـراش يتضاحكـان ويتـأوهـان بلذة. بدأت أعرف ما كان يفعـلان. إنهما ينامـان عاريـين ويتعانقـان. هذا ما يصالحهما إذن. عنـدما أكـبر ستكون لي امـرأة. سأخـاصمها في النهار بالضرب والشتم وأصالحها في الليل بالعـري والعناق. أنها لعبـة جميلة هذه ومسلية بين الرجل والمرأة.

عــثر لي أبي عـلى عمــل في مقهى شعبي في نفس الحي. صـاحب

المقهى مبتورة يده اليسرى. قدمني إليه أبي:

ـ ها هو ذا ابني. إذا اعتدى عليه احد السكارى أو الحشاشين بما لا يليق بـه فسوف ازهق لـه روحه. انت تعـرفنا نحن الـريفيين. اننـا لا نصبر كثيراً.

ـ كن هاني يا السي حدو. ماكاينشي اللي يمسو.

أعمل من السادسة صباحـاً حتَّى ما بعـد منتصف الليل. كـل شهر يجيء أبي عند صاحب المقهَى. يقدم له كـأس شاي ثم يعـطيه ثـلاثين بسيطة عن عملي. يناديني مخدومي لكي أتقدم أمام أبي وأبوس له يده. يقول لي:

ـ لقد قبضت ثمن عملك. الله يرضي عليك.

لم يكن يعطيني شيئاً من الثلاثين بسيطة. في اليوم الـذي يقبض فيه أجـرتي يغيب يومـاً أو يومـين. أحيانـاً يعـود ثمـلا. أسمـع أمي تلفظ كلمات القحـاب والسكارى. أنـه يستغلنـا أنـا وأمي. صـاحب المقهَى يستغلني أيضـاً لأن هناك غِلْمَـانَ مقـاهي يتقـاضـون أكـثر من راتبي. سأسرق كل من يستغلني حتَّى ولـو كان أبي وأمي. هكـذا صرت أعتبر السرقة حلالاً مع أولاد الحرام.

للمقهَى زبنـاؤه النهاريـون وزبناؤه الليليـون. في أيام العـطل يلتقي النهاريون والليليون. يتحدثون عن حياة النهار والليل.

أدخن الكيف والسجائر في الخفاء. حين أتسخر لأحد زبنـاء المقهَى يعـطيني «سِبْسيـاً» من الكيف أو كـأس خمـر أو قـرصـاً من معجـون الحشيش. تقيأت هلامـاً أصفر أخضر عـدة مرات. مـرضت. في أيام المرض بدت لي الحيـاة غريبـة. المرض يعمق الـوحدة. الإنسـان يحب نفسـه أكثر في الـوحدة. أدركت أني لست سـوَى أنا. وحـدي أراني في

مرآة نفسي. العالم يبدو لي مرآة كبـيرة مكسرة وصدئـة أرَى فيها وجهي مشوهاً.

رواد المقهَى يشجعونني على تدخين الكيف وأكل معجون الحشيش. قـال لي أحـدهم: «القيء لا يحـدث إلا في المـرة الأوَلى.» صـدق الحشـاش. لم أعد أتقيـأ وأمـرض. شربت نبيـذاً لأول مـرة. تقيـأت. مرضت. قالوا لي أيضاً: «هذا لا يحدث إلا في المرة الأولَى.» أنهم على حق هؤلاء الحشاشون والسكارى.

لم يكن صـاحب المقهَى يعترض عـلى سلوكي. أدركت أن ما يهمـه هو ما يربحه من المال. هو أيضاً يسكر ويتحشش. كنت أفكر أحياناً: أمن أجل هذا يولد الإنسـان ويعيش؟ أوه! كلا. هنـاك الجنة والنـار، كما قالت لي أمي.

أحياناً أنام في المقهَى فوق المقاعد. أحياناً أنـام في المخبزة الاسبـانية المجاورة للمقهَى. ذات ليلة رأيتهم يمزحون: أمسك خمسـة أو ستة من الخبازين بالخباز اليزيدي وطرحوه على الأرض. كمموا له فمـه بخرقـة من القماش حتَّى لا يعض. أنزل واحد من رفاقه سرواله وحـك باستِـه وعضوه التناسلي وخصيتيه أنف اليزيدي. أهكذا يمزح الناس؟ خرجت من المخبزة خائفـاً أن يحدث لي مثلما حـدث لليزيـدي أو أكثر. فضلت الخـوف في طريقي إلى منـزلنا. كنت أغـامـر. لقـد سمعت كثيـراً عن الإغتصـابـات الجنسيـة التي تحـدث للفتيـات والصبيـان. الـطريق إلى سكنانا مظلم، مخيف في الليل.

مسكن صاحب المقهَى ملاصق لمقهاه. أحياناً يبدأ سكـره في المقهَى وينهيه في بورديل المدينـة حتَّى اليوم التـالي كما يقـول عنه رواد المقهَى.

www.ithar.com

أحياناً يتغيب أكثر من يوم في بورديل [1] المدينة أو في بورديلات مدن أخرى.

في غيابه أضاعف سرقتي له. إن معلم الوجاق يغلبه النعاس في الليل والنهار. كنت أقبض الفلوس من الرواد وأضعها في صندوق خشبي فوق الحاجز. حين يفيق المعلم يأخذ الفلوس ولا يحاسبني. بدأت أدخل داره متى أشاء. آكل مع أولاده. أنام معهم في حجرة واحدة عندما لا يضطرني السكر إلى النوم في المقهى. زوجته تتزين أكثر من مرة في الأسبوع بالقفطان والحلي ولا تبيت في المنزل أو تعود بعد منتصف الليل. امرأة سمينة وقمحية البشرة. وجهها مستدير وصدرها كبير وأردافها أبرز ما في جسمها. حين تكون لابسة ثوباً خفيفاً جالسة وتنهض تبدو كما لو أنها خرجت من الحمام. إنها امرأة تعرق كثيراً. أتأمل جسدها وهي تبتسم لي. لم تنهرني قط. رأيته يضرب زوجته وأولاده مثل أبي، لكنه أقل قسوة. كثيراً ما رأيته يقبل أولاده وهم يلاعبونه ويكلم زوجته بهدوء ومرح. أبي يصفع ويصرخ مثل حيوان.

يمضي، أحياناً، أكثر من أسبوع لا أزور خلاله أبويَّ. استرحت من خلافاتهما. هزلت. لم أكن أنام كثيراً. مرضت. بطن أمي ينتفخ. هذه المرة لن أبقى في الدار لأحرس الطفل الذي سيخرج من بطنها. لقد كبرت وصرت أعمل. تخيلت الصراخ ينمو في بطنها. ذات يوم سأسمع: واع ع ع ع ع ع..!

تركت عملي في المقهى. أثناء نقاهتي تعلمت كيف أصطاد الطيور في البستان. صنعت أرجوحة بحبل قوي ربطته إلى فرع شجرة التين. التأرجح يلذذني. قضيبي الصغير ينتصب عندما أتأرجح. تعلمت

(١) بيت الدعارة.

السباحة في الصهريج الذي تُسْقَى بمائه الغرسة. أستيقظ باكراً لأسرق الفواكه من الأشجار. الدجاج وبيضه وأفراخ الحمام. كل مفارخ الغرسة أعرفها. أبيع المحصول لأصحاب دكاكين الحي. رغبتي الجنسية تتهيج كل يوم. الدجاجة، العنزة، الكلبة، العجلة... تلك كانت إناثي. الكلبة أخرق لها الغربال المثقوب في رأسها، أربط العجلة، ثم من يخاف العنزة والدجاجة؟

يؤلمني صدري. سألت عن ذلك الكبار. قيل لي أنه البلوغ. الألم في الحلمتين المتورمتين عند الانتصاب. أستمني على المحرم والحلال من الأجسام. حين أقذف سائلاً مثل المخاط أحس كأنه عضوي قد جرح من الداخل.

صعدت إلى شجرة التين في ذلك الصباح. أرى أسية من خلال الأغصان. تمشي مختالة على مهل. تدنو من الصهريج. إذا اكتشفتني فقد تخبر أباها عني. هو أيضاً ما رأيته قط يبتسم مثل أبي. اللعنة على كل الآباء إذا كانوا مثل أبي. تلتفت بعيداً وقريباً. وتتوقف. تصغي إلى الأصوات. عيناها سوداوان كبيرتان ويقظتان. تخيف. لو لم أكن أعرفها لظننتها جنية. تقترب من الصهريج بخطوة واثقة وأخرى بشك. أهي تخاف؟ كم تلتفت! تتمهل في المشي كأنها تمشي على البيض تخاف أن تكسره. تقف على عتبة درجات السلم كأنها الوحيدة في هذا العالم. تفك حزام منامتها. لم أعد أرى سوى جسمها. تنفتح المنامة الوردية مثل جناحي طائر يريد أن يطير ولا يطير. ينبثق بياض أعلى جسمها إلى ردفيها. يدوخ رأسي بلذة. أنبهر. تسقط التينة من يدي. أبلع التي في فمي. سلّتي تميل. يسقط نصف محتواها. يبزغ قرص الشمس القرمزي يحفه النور مثل بيضة مكسورة في صحن أزرق. تسبح الكائنات. يصفر عصفور والحمام يهدل وديك يصيح

www.ithar.com

ونهيق حمار يغطي كل الأصوات التي لا أراها. لا أرى سوى تلك التي... تتعرى. أسية تتعرى. أتخيل الوجود كله يعرى: الأشجار تسقط أوراقها، الناس يعرون، الحيوانات يسقط عنها زغبها وشعرها. تنزلق المنامة على جسدها. تعرت. أسية تعرت. ابنة صاحب البستان تعرت. ما أضوأ ما في جسمها! ما أسود ما في جسمها! صدرها ملآن. ثمرتاها منتصبتان. زغب أسفل سرتها أسود مخيف وجميل. يؤلمني انتصابي. تخطو خطوتين فوق عتبة الصهريج. هياجي يشتد. شعرها الأسود يغطيها من الوراء. تنحني. على كتفيها ينسدل سالفها إلى الأمام. تعرت من الوراء. ينفتح لحمها الأبيض من الوراء عن ظلمتها الخفيفة. يتعسل فمي. يتدغدغ. يؤلمني جسمي بلذة. رعشة حلوة وقذف لذيذ أرخياني حالماً مستنداً على فرع الشجرة. مِلتُ وكدت أهوي. متمهلة تهبط درجات السلم اللزجة. تتأمل الماء. تبلل حشيش إبطيها الأسود وصدرها الأبيض المنتصب. ترش فجوة الفخذين. ترش كل جسمها وتقفز. أنزل. بحذر أمشي على أربع. أخبىء منامتها بين الأعشاب قرب الصهريج. أعود فرحاً فوق الشجرة. مبتسماً أنتظر ما سيحدث. آكل التين بفرح وشراهة. نسيت البيع والشراء في الحي. تسبح مثل سمكة. تغوص وتطفو مثل بطة النهر. مثل عروس البحر، التي سمعت عنها، تظهر وتختفي. يضج البستان بالأصوات الجميلة والقبيحة. كل شيء جميل: على بطنها، على ظهرها، على جانبيها، على رأسها وواقفة مثل زجاجة في الماء غائصة وطافية. ما أجمل أن تظن أن أحداً لا يراها!

تصعد مرتعشة. تندهش. تحمي صدرها بذراعها اليسرى وباليمنى أسفلها. تفتش بحيرة وخوف. موتي! تلتفت هنا وهناك باضطراب. موتي! تعثر على المنامة. تلبسها هاربة. يختفي بياضها. أضحك

بجنون. الحمار من جديد ينكر كل الأصوات.

حلمت ليلاً أسية تفسخ حزامها. تطفو عارية. تنساب مثل النونة في قاع الصهريج. حلمتني أعوم معها. تحتها. على جانبينا. نقف في عناق ثم نغوص إلى قاع الصهريج لننام دون أن يقهرنا التنفس.

رأيت الطفلة مناة ترفع ثوبها وتقعي طويلاً تحت شجرة صغيرة. حرصت أن أراها ولا تراني. لماذا شيئها الوردي لا زغب له؟ شيئها الصغير يبشع إذا هي انحنت: مثلما هو الفم الذي بلا أسنان شيئها بشع. دخلت على جارتنا في دارها لأطلب منها شيئاً لأمي. وجدتها تبدل ثيابها الداخلية: بطنها بارز بشع، متهدلان ثدياها. لحمها مترهل. إذا هي أجسام النساء ليست مثل جسم أسية فإن جسم المرأة بشع، بشع، بشع!.

قضيبي يدغدغني كل يوم. أهدهده بأصابعي كأني أهدهد ألم دمل أنتظر أن يتقيح. ينتصب. يمتلىء. يستوي شيئاً فشيئاً حتى يحمرّ ويعرق لاهثاً. صرت مشغولاً به وحده. أحس بألم في الخصيتين إذا لذتي لم تتم في الاستمناء. أتخيل جسم أسية: أبوسها في الخيال، أمس صدرها فتتركني. تلاطفني باليد والفم.

أخبرتها بما جرى. راحت تجري ورائي. أقفز على ما يؤخرها ويعوقها عن اللحاق بي. تعثرتُ. تكورتْ فوقي. نهضت لأهرب. أمسكتني. صفعتني. بكيتُ. خجلتْ عيناها واستكانت. لاطفتني. دعوتها أن تأكل البيض المسلوق معي. كنت أحفر في الأرض حفرة وأطمر فيها بيضات ملفوفة في خرق مبللة أو ورق وأشعل فوقها النار. أكلنا البيض المسلوق والفواكه وتركتها تحلم تحت ظلال شجرة تفاح وأنا جنبها أحرس نعاسها. لا شك أنها تحلم برجل. هذا ما سمعته

www.ithar.com

عن النساء عندما يحلمن. كان لها أخ يصغرها ويصغرني. أكْلُ البيض معه أفضل والاستلقاء جنبه أكثر لذة وحرارة.

أستهلك كثيراً من علب الوقيد في ممارسة هوايتي الجديدة. أجلس على حافة الصهريج أرقب خروج النونات من جحرها. أقتل خمس أو ست وقيدات. أشعلها وأرشق بها النونات المنسابة. أظل أطارد انسياب النونة الهاربة بالشعلات حتّى تدخل جحرها. تتلطف حدة مزاجي القلق بمنظر الشعلة في الهواء وانطفائها في الماء، انسياب النونة ودخولها في جحرها خائفة. افلتتْ شعلة من يدي وسقطت ورائي. لم أبالِ بها. أشعلت أخرى. لم أنتبه للشعلة الساقطة فوق السياج. سمعت القصب يطقطق. أحاول اطفاء النار بالحجارة وكل ما عثرت عليه من أشياء. حريق. أهرب. أختبىء في الاصطبل. أصوات أعرفها وأخرى لا أعرفها تستغيث بالناس والماء. أغوص في تل من التبن مفكراً في سوء المصير. في الليل دخلت حظيرة البقر. أنهضت بقرة هولاندية. لاطَفْتُها. داعبت ضرعها. تركتني أرضع. أتسكع نهاراً في الحيّ. في الليل أنام في الاصطبل. في الليلة الثالثة وقعت في شرك أبي بمساعدة بعض غلمان الحي الذين خصص لهم مكافأة. كسر الجيران مزلاج باب بيتنا كي ينقذوني أنا وأمي. كان يضربنا معاً بحزامه العسكري. جسمي كله دام. عين أمي متورمة. ظللت أياماً لا أعرف كيف أنام. تمنيت لو أستطيع النوم في الهواء.

عدت إلى العمل في المقهَى وأكل معجون الحشيش وتدخين الكيف والسكر. دخلت إلى دار صاحب المقهَى. ابنته فاطمة تغسل الثياب منحنية. منحسر ثوبها من الأمام. بدت لي أكبر مما تركتها. تكبرني. نظرت إليها. قساوة أبي عليّ توقظ شهواتي نحو كل ما هو جسدي. تلتفت إليّ باسمة. ثوبها الخفيف أراه في الخيال ترفعه الريح. أسية

أجمل، لكن فاطمة قريبة مني وأسهل. الأخرى صارت ذكرى عابرة. رفعت رأسها، قبضت بيديها على خصرها، تألمتْ، تمططت. فخذاها ممتلئتان عاريتان. أطلقت ثوبها على ركبتيها. دنوت منها في خيالي. أعدت انحسار ثوبها في الخيال. أشعلت النار في ثوبها. استسلمت بلذة للّهيب الذي يحرقها من الأسفل. جميل عريها من خلال شعلة النار تلك. قالت بحدة:

ـ ماذا تريد؟ أحالم أنت هذا الصباح؟

قلت بخيبة:

ـ نفد السكر في المقهَى.

تأملتني. قالت بصوت قوي:

ـ ألا تعرف أين يوجد السكر؟ (أضافت لنفسها بصوت خفيض): لم يبق في الحساب إلا أنت.

نظرت إليها بخبث. قالت مستغربة:

ـ مالك اليوم؟ إنك غريب اليوم. سأقول هذا لأبي.

مضيت إلى حجرة المأونة الصغيرة خافضاً رأسي. أخرج بالسكر. تنظر إليّ باهتمام. أختلق أسباباً كاذبة عندما أعلم أنها وحيدة في المنزل. أعريها بنار خيالي متَى أشاء. هي تعودت على مجيئي الكاذب. أنا فهمت عبوسها المصطنع. نتناظر أكثر مما نتكلم. في ليلة باردة أنجذب جسمي إلى جسمها. تدفأنا ولعبنا بجسدينا. تغطينا بجسمينا. انزلقنا على بعضنا. ألامسها بلطف وفي الخيال أصفعها حتّى يصفق اللحم. وجهها تحت وجهي. يطل عليّ وجهها من فوق.

www.ithar.com

وضعت أمي صبياً. أختي ارحيمو صارت تستطيع أن تحرس أخاها عاشور. ذات مساء شربت النبيذ وتحششت في المقهى. جلست خارج القهوة أستهوي. أتأمل نجوم السماء ونجومي حين أغمض عينيّ. نهرني مخدومي:

ـ قم واعط لذلك السيد كوب ماء.

حالماً نظرت إليه. الملعون. اطفأ نجومي.

ـ وأنت؟ ماذا تفعل أنت هنا؟ أعطه بنفسك.

صفعني مخدومي وهربت. تلك كانت آخر ليلة لي في المقهى. سرت في الظلام وطيور الليل في رأسي. لم أخف من الأشباح: لا من الإنس ولا من الجن. في الطريق المظلم جريت وراء قط أو أرنب!

بعد أيام من عيد الأضحى صحبت أمي إلى النهر المجاور للبستان. غَسَلَتْ جزة الكبش وأشياء أخرى. في الليل سمعتها تقول: الله! نسيت السكين التي كنت أنظف بها الجزة. نسيتها فوق الصخرة.

لم أقل لها شيئاً. خرجت أجري نحو النهر. وصلت وعثرت على السكين. أمسكتها في يدي بحركة كأني أواجه مبارزة. نظرت نحو الضفة الأخرى. شبح قادم إلى النهر. كنت قد سمعت أن من يرى جنيّا ويغرز السكين في الأرض يبقى الجنّي محبوساً في مكانه. غرزت السكين في الأرض بقوة. عدوت وركبتاي تخذلانني. سقطت ونهضت. لم أستطع الصراخ ولا الإلتفات. أحسست أن مجرد التفاتي إلى الوراء سيقبض عليّ المسخ الذي رأيته. أتعثر وأنهض وأجري حتى وصلت إلى الدار وقلبي في حلقي.

مرضت حتى ظنوني سأموت. جاء إلى منزلنا شيخ يخرج العفاريت

من الأجسام. أمر الرجل أمي أن تذبح فروجاً أسود ثم يطاف بي، محمولاً، سبع مرات حول بئر حوش الدار.

بعد شفائي قصصت على رفاقي الصغار ما حدث لي. كلهم صدقوني. بعض الكبار قالوا ربما يكون الشبح الذي رأيته رجلاً بدوياً كان عائداً إلى منزله في تلك الساعة، لكن أكثرية الناس كانوا يصدقون حكايات ظهور العفاريت. إن الجنيّ هو جنديّ من جنود الله يجازون الناس بما يستحقون من خير أو شر.

عثر لي أبي على عمل آخر في معمل الآجُر بخمس وعشرين بسيطة في الأسبوع. أدفع عربة يد مشحونة بالطين أو القرميد ثماني أو تسع ساعات في اليوم. إنسلخت راحتاي ودَمِيتا وَكَنِبَتَا. خشن وجهي بالشمس والغبار واشتد جسمي مثل طبل.

إنتقلت إلى عمل آخر في معمل الفخار. كان عليّ كذلك أن أدفع نفس عربة اليد ثماني أو تسع ساعات في اليوم. في هذه المرة كنت أنا الذي أقبض أجرتي. أعطي منها نصفها إلى أبي مقابل الأكل وغسل ثيابي والنوم في المنزل. ثرت على عربة اليد. قلت لأمي في غياب أبي:

ـ أنا لم أعد حماراً. الحمار هو الذي يظل يحمل دائماً الأثقال أو يجرها.

ـ وماذا ستعمل؟

ـ أنا أعرف ما سأفعله.

وقال لي أبي وقت الغداء.

ـ إن الأكل والنوم في الدار يكلفان مالاً. إذا لم تعمل فلا يوجد أكل ولا نوم. هل تفهم ما أقوله؟

www.ithar.com

قلت له خافضاً رأسي:

ـ نعم.

وفي خيالي: وأنت، ماذا تعمل؟ أليست أمي هي التي تبيع الخضر في حي الطرانكات؟

غادرت معمل الفخار واشتريت صندوقاً من ماسح أحذية. أطوف على المقاهي والحانات. ألتقط الأعقاب، أشرب ثمالة كؤوس الخمر والمشروبات الغازية وبقايا الطعام في الصحون الصغيرة أجمعها قبل أن ينظف النادلون الطاولات في سطيحات الحانات. الذين أمسح لهم أحذيتهم لا يروقهم عملي. لم أكن أتقن حرفتي، الفرجون يسقط من يدي عندما أنقله إلى اليد الأخرى بتلك السرعة التي يتقنها المحترفون. أيضاً يضايقني حسد وسخرية الذين يتقنون هذه الحرفة. كثيراً ما كنت أتضارب معهم. تصاحبت مع بائع صحف، في سني تقريباً. تركت حرفة مسح الأحذية وصرت أبيع صحيفة دياريو دي آفريكا (Diario de Africa).

٣

إنتقلنا إلى حي الطرانكات. أعين أمي في بيع الخضر والفواكه. أنادي بصوت صاخب على المشترين بالإسبانية:

Vamos a tirar la casa por la ventana!

Quien llega tarde no come carne!

Debalde! Debalde vendo Hoy.

كل مساء آخذ لنفسي، دون علم أمي، النقود لشراء معجون الحشيش والكيف والجلوس في المقهَى والدخول إلى السينما.

إلتقيت صديقي التفرسيتي. كان حزيناً. قال:

ـ عمي مات.

ـ مسكين.

ـ قتل نفسه وزوجته وثلاثة أولاده.

ـ كيف حدث ذلك ولماذا؟

ـ قضوا أياماً بدون أكل. لم يرد هو وزوجته أن يطلبا من أحد الجيران شيئاً من القوت. بنيَا، من الداخل، باباً آخر من الحجر والطين وماتوا.

www.ithar.com

ـ يرحمهم الله.

ـ إشترينا نصف زجاجة من الماحيا[1] وشربناها عند حافة جبل درسة. إتفقنا أن نذهب إلى الماخور.

قالت لنا للأحرودة، التي نعتبرها، نحن المراهقين، معلمة في النكاح:

ـ يظهر أنكما شربتما، أليس كذلك؟

ـ نعم، لكنك أنت جميلة ونحن نريدك.

إبتسمت وهي تفحصنا. وجهها يلمع بالمساحيق وعيناها مكحلتان. نظر إليّ رفيقي. أكدت للمرأة أننا لم نشرب كثيراً. فقط نحن مرحان ونريد أن ننعس معها كما فعل رفاقنا في الحيّ. هي تفحصنا بنظرات باسمة ونحن نخاف أن ترفضنا. قالت لنا:

ـ طيب، من سيبدأ الأول؟

نظرت إلى رفيقي. قال:

ـ أرجوك ادخل معها أنت الأول.

طلبت مني أن أدفع لها المال مقدّماً. لم أتردد. هي تبيع جسدها ونحن نشتريه. أخذت تتعرى واقفة. السيجارة في فمها. دخانها يجعل عينيها ناعستين. شفتاها شهوانيتان، حمراوان. قالت لي:

ـ إفتح فمك.

كنت خائفاً منها. فتحت فمي طائعاً. وضعتْ سيجارتها في فمي

(١) نوع من الخمر يصنعه اليهود من التين أو التمر.

باسمة. أدارت لي ظهرها. فككتُ لها رافعة صدرها متأملاً بشهوة الزغب الخفيف عند منبت ظهرها. تستدير وتواجهني باسمة رافعة نهديها بيديها. إستعادات سيجارتها إلى فمها باليد الأخرى. إبتسمت لها خوفاً من جسدها. فكرت: جعلتْ من فمي منفضتها.

ـ دخن. ألا تدخن؟

أخرجت سيجارة بحركة سريعة، مضطربة. قالت:

ـ إنزع ثيابك. مالك خائف؟

قضيبي منتصب. شرعت أفك أزرار بنطالي باضطراب. قلبي يخفق بعنف. أسية وفاطمة لا خوف منهما، لكن العلاقة معهما ليست إلاّ انزلاقاً والتحاماً مسطحين. هذه المرأة ستتركني أدخل في لحمها كما تدخل السكين في اللحم. سأجرح لها فرجها.

أستلقتْ على الفراش. ينفتح مقصها. شيئها حليق. تذكرت مُنَاة تبول. أمسكت قضيبي في يدها منتصباً. فكرت: وإذا كان لفمها الأسفل أسنان! أدخل بين فخذيها بحذر وخوف. تضغط عليّ بساقيها من الخلف. تضمني إليها. قالت منزعجة:

ـ أنت لا تعرف بعد حتّى كيف تدخل في المرأة.

لم أعرف ما أقوله لها، لكنني فكرت في الكلاب التي تلتصق. شيئها ناشف. تبعدني عنها قليلاً. بَصَقَتْ أناملها بلسانها وبزّقت فمها الأسفل.

ـ أدْخُل الآن...!

.....ـ

www.ithar.com

ـ مالك؟ أدخل أو قم من فوقي. أدخل أقل لك.

وإذا كان لفمها الأسفل أسنان!

ـ لا تخف. لن آكلك. أنت جميل. أدخل.

دخلت فيها بحذر وخوف وأنا أفكر في الكلاب التي تلتصق. غصتُ في فمها المخاطي. ينفلت فمها الزبدي. لقد تزَبَّدَ الآن.

ـ آي آي آي! ليس هكذا. من أجل هذا أكره النكاح مع الأطفال. لا تلمسني هناك. لا شك أنك هذه أول مرة تنام فيها مع امرأة.

لم أقل لها شيئاً. أوشكتُ أن أقول لها بأنني قد لعبت بجسدي في الحي مع رفاقي. لم ترد أن تعطيني فمها. تعطيني خدها. نهداها ينفلتان مني. إنها مثل سمكة تنزلق في اليد. تنزلق لي يدي من على صدرها.

ـ آح آح! إنه لحمي يا ولد وليس حلفاء. أنت ما زلت صغيراً لكي تفعل مثل هذه الأمور كلها مع امرأة.

فاطمة أجمل من للَّاحرودة التي لا تتركني ألمس نهديها. مع ذلك أعطتني فاطمة فمها وصدرها. لم يستغرق الدلك المخاطي طويلاً.

ـ هيا، إنك انتهيت. لقد أَتَى دور رفيقك.

دفعتني عنها. أنسحب وقضيبي يقطر.

ـ أووه، ليس هكذا. إنك تلوث لي الفراش. انتظر حتَّى أريك كيف ينبغي لك أن تنسحب.

إنها حمقاء هذه المرأة. أليست هي التي أمرتني أن أقوم من فوقها؟

تضع منديلاً في جرحها. تدير لي ظهرها. أشتهي أيضاً مؤخرتها. فكرت: صحيح، إنها معلمة الجماع كما قيل لنا، لكنها تشكو كثيراً.

ـ ها أنت قد نمت مع أول امرأة. ألست أنا أول امرأة تنام معها؟

إبتسمتُ وهززتُ لها رأسي.

ـ ستفكر دائماً في هذه الدخلة معي.

ما زال منتصباً.

ـ هيا، ماذا تنتظر؟ إغسل والبس بسرعة. صديقك ينتظر نوبته.

غسلته في الطشت ولبست بنطالي وهو ما زال منتصباً. يرتخي وينتصب.

سألني رفيقي التفرسيتي:

ـ كيف هي؟

ـ رائعة. بلا أسنان.

إنْدَهَشَ:

ـ ماذا؟ أليس لها أسنان؟

ـ لا أقصد أسنان فمها. إن فرجها لا يعض. إنه يقبض ويمص لكنه لا يعض. سترى بنفسك. إنه دافئ ولين.

قالت من الداخل:

ـ هيا، ادخل أنت الآخر.

فكرت: شيئها ليس جميلاً، لكن دفأه لذيذ. إنه يدفئ الجسم كله، يزيل الدوخة، لكن من الأحسن أن أدخل فيه دون أن أراه.

www.ithar.com

تعـوّدنا أن نـتردد ثلاث أو أربـع مرات في الأسبـوع لنكتشف امرأة جديدة تقبل أن ندخل معها. بعضهن يرفضن. كلهن تقريباً، يتشابهن في الفراش: «هيا، إنْتَهِ بسرعة!» كنا نعود عند اللواتي يعطينا شفاههن ونهودهن ويتركننا نفعل الحب معهن على مهل. قلت للتفرسيتي:

ـ النعاس مع امرأة بلا تقبيل الشفتين وضم النهـدين باليـدين ليس نعاساً كاملاً.

ـ هن لا يعـطين كـل شيء إلاّ للكبـار. وأحيـانـاً حتّى يضربهن الواحد.

ـ هذا صحيح. وهل نحن ما زلنا صغيرين؟ كل من ينتصب عضوه فهو رجل.

ـ هذا صحيح.

ـ هذا المساء سنذهب عند الإسبانيات.

في بورديل الإسبانيات لم تقبلنا الشابة الأولَى. قالت لنا:

ـ Uno solamente. Nada de dos.

قلت للتفرسيتي:

ـ أدخل معها أنت إذا شئت.

ـ كلاّ. أما أن ندخل معها أو لا شيء.

قال:

ـ تِمْشي تَخْرَا.

ـ إنها جميلة وشابة.

ـ صحيح، لكن تمشي تخرا في ثيابها. تمشي تخرا هي وشبابها. هناك أخريات أجمل منها، سترى.

ذهبنا عند ثانية. أكبر سناً قليلاً من التي رفضتنا. أكثر هدوءً من الأخرى. تبدو طيبـة وجميلة. لكن الشابـة الأولَى أجمل. فكـرت: تفو على الجمال المتكبر!

ـ ماذا تقول فيها؟

ـ لا يهم. لا بأس بها. المهم هو أن تقبلنا وتكون لطيفة معنا. تفـو على تلك الشابة الأولَى!

سمينة قليلاً.

ـ لا يهم. سنجرب معها. بعـد ذلك سنبحث عن أخـريات أجمـل منها.

فكرت: الجمال عذاب.

لعبنا، هذه المـرة، وجه الفلس وقفـاه. ربح رفيقي. سيـدخل هـو الأول. تردد وقال لي:

ـ محمـد، أدخل أنت الأول معهـا. هذا أفضـل. أنت تعـودت أن تدخل الأول.

دخلت ونادت:

ـ أنطونيو! هات ماء وفوطة.

أطـل علينا ثم اختفَى. جـاء بماء وفـوطة. رمـوش عينيه مكحلة، وجهـة مُجَمَّلٌ بمسحـوق وردي، ثدياه بـارزان، بنـطالـه مشـدود عـلى مؤخرته. قالت لي المرأة.

www.ithar.com

ـ ألا تعطيه شيئاً؟

أعطيته بسيطتين. أردت أن أدفع لها مقدماً الخمس عشرة بسيطة.

ـ لا. لا. فيما بعد. هل أنت ستهرب؟

غسَلْتُهُ بالماء الدافئ والصابون. ضغطت عليه من منبته إلى حشفته وفركته في يدها. المغربيات لا يغسلنه ولا يضغطنه في أيديهن. فيما بعد عرفت أنها طريقة لمعرفة هل العضو سليم أم مريض! لم أستطع أن أمنع انتصابه في يدها. إبتسمنا. قالت باسمة:

ـ إيريس فويرتي، هي! Eres Fuerte! Eh!

تعرّت من كل ثيابها. شيئها ليس حليقاً. المغربيات يحلقنه. انتظرت أن تغتسل هي أيضاً. لم تفعل. تمددتْ على الفراش رافعة ساقيها، ضامة فخديها. لماذا يسترن شيئهن؟ شعرها نابت في شكل لسان حتّى بلغ سرتها. أهي لم تغتسل لأنها تعرف أنها جد نظيفة؟ ثدياها صارا الآن مثل خبزتين صغيرتين مدورتين. لم تقبض عليّ بمقصها. تمددت مثل تونة كبيرة. سمعت أن النبي يونس ابتلعه الحوت. ثنت ساقها تحت الساق الأخرى. نظرت إلى انفراج ساقيها. وضع غريب عليّ. تركتني أقبلها في فمها بلطف. فمها حلو وحار ورائحة عطر تبعث من خلف أذنيها. تألمتْ:

ـ آي آي! لحظة. سُلَّ شيئك. سأغير وضعي. هذا الوضع يبدو أنه لا يلائمك. ربما يلائمك هذا.

غيرتْ وضعها. خفت ألا تتركني أدخل فيها مرة أخرى. أعجبني الوضعان معاً. تركتني ألمس نهديها برفق. حينما ملأت فمي بنهدها

ولساني يدغدغ حلمتها قاومت رغبة قوية حتّى لا أعضها. لم تكن مستعجلة. ضايقني زغبها في حشفته.

سألني رفيقي:

ـ كيف هي؟

ـ أحسن من كل الأخريات. تعطي جسمها كله. نظيفة ومعطرة. ليست مستعجلة مِثْلَ الأخريات.

ـ صحيح؟

ـ سترى بنفسك. أتمنّى أن أموت فوق جسد امرأة مثلها.

في الليل حلَمْتُني أرضع نهد امرأة. حليبها يفور في وجهي حتّى كدت أختنقُ.

مات أخي عاشور. لم أحزن على موته. كنت أسمعه يصرخ وأراه يحبو، لكني لم أكن أفكر فيه. ملذات جسدي ألهتني. أختي أرحيمو أيضاً أراها تكبر وتتكلم، لكني لم أكن أهتم بها. كنت غارقاً في همومي وتشردي، حالما بملذات العالم. أنام في الدروب أكثر مما أنام في المنزل. سلفتْ لي أمي مبلغاً من المال. بدأنا، أنا والتفرسيتي، نشتري الخضر والفواكه من المخازن ونبيعها في حي الطرانكات. في موسم العنب نشتري منه عدداً من الصناديق ونبيعها في أسواق البوادي.

لم تكن تدوم طويلاً هذه التجارة. كنا ننفق كل ما نربحه في شرب الخمر والنوم مع نساء ماخور حي «السانية». في فصل الشتاء نتحسر كثيراً على إسرافنا. كنا نسرق أو نحمل حقائب المسافرين في المحطات.

www.ithar.com

بدأ أبي يستعد للرحيل إلى وهران ليزور إخوته الذين هاجروا من الريف أيام المجاعة وظلوا هناك.

كانت أختي ارحيمو قد بدأت تجلس مع أمي في الدكان لتحرس البضاعة من اللصوص الصغار. ذات مساء شتمها وصفعها بطل حينا كوميرو. كنت أدخن الكيف في مقهَى السي «موحند» عندما جاءني رفيق ريفي بالخبر:

ـ كوميرو أهان أختك وصفعها. حاول أن يسرق لها رأس كرنب. أمك ليست في الدكان. لا بد أن تنتقم لأختك.

وجدت أختي تبكي. قال لي أصحابي الذين تجمعوا حولي:

ـ هو الآن في قهوة باب «التوت».

ـ لماذا لا تعارك ذلك القواد؟ إنك ستغلبه. نحن نعرفك في العراك. لقد غلبه بوراس بضربة واحدة من رأسه.

ـ نعم، عاركه. إننا معك. لن يحميه أحد ضدك. من يعرف في حينا الضرب بشفرة الحلاقة مثلك؟

إشتريت ثلاث شفرات حلاقة ووزعتها في جيوبي. ذهب أحد الرفاق ليخبر كوميرو بالمبارزة في السوق الخارجي. وجدني هناك أنتظره. كان معي أربعة رفاق. جاء هو محمياً باثنين. قال لي:

ـ هل تريد أنت أيضاً أن أحك لك الفليفلة في إستك؟

بصقت عليه وبدأنا نتضارب بالأيدي. كان أقوى. يضرب بكل ثقل جسمه. كنت أمامه مثل ريشة. أراوغه حتّى لا يقبض عليّ بيديه. هذه كانت حيلتي مع كل الذين تضاربت معهم. رفاقنا يراقبوننا

ويشجعوننا ولا أحد يتحامَى. أصابتني بعض لكماته. إبتعدت عنه فاقداً توازني. أخرجت شفرة وبدأت أرقص حوله. بدأ يلهث. أفلحت له بضربات سريعة وجهه وذراعيه وصدره. تركته يصرخ، يتلوى ألماً وهربت محمياً بأصدقائي.

في تلك الليلة قبض عليّ أبي بمساعدة بعض رفاق الحي الذين كانوا ضدي. في الواحدة صباحاً ركبنا الحافلة الذاهبة إلى الناظور.

توقفنا في «كتامة» لنشرب القهوة السوداء في مقهَى شعبي. كان صباحاً بارداً. تلك أول مرة أدوس فيها الثلج. أندافه على أشجار الصنوبر. الرحلة شاقة. وجوه الناس عبوسة. الفقر في ثيابهم وفي مساكنهم المبنية بالحجر والطوب. الأشياء الثمينة يملكها النصارى. كنا نأكل الرغيف الجاف والبيض المسلوق الذي بدأت تفوح رائحته المغثية. عبرنا نهر ملوية. النساء والأطفال يعبرون على أكتاف العابرين. أبي كانت له بطاقة التعريف الشخصية. أنا لم تكن عندي أية ورقة. كل الذين لا يملكون جواز السفر يضطرون إلى عبور هذا النهر بعيداً عن الجمرك. تارة نركب الحافلات وتارة نتابع الرحلة على الأقدام عبر البوادي عندما نقترب من أحد الجمارك.

في «وجدة» قضينا ليلة عند أسرة يعرفها أبي. في الصباح قتلت كثيراً من القمل في ثيابي. كنت قذراً. أسعل. لا أكفّ عن حك جسدي. الناس الذين يعرفهم أبي أكثر جوعاً منا. تفو على هذه الرحلة، رحلة الجوع!

www.ithar.com